ارجعوا إلى الخدمة ... أيها الأحباء[1]

يا صديقي العزيز، يا من كنت يومًا ما خادمًا في كنيسة الله، في خدمة الله حسب ما أرشدتك نعمة الله وساعدتك على إتمامها، ولكنك الآن تركت الخدمة لهذا السبب أو لذاك أو لسبب لم تتبينه بعد، إليك أتوجه بحديثي بل برجائي وتوسلي هذا مناشدًا إياك أن لا تستمر في النظر إلى الوراء بعد أن أمسكت بالمحراث وأن لا تحرم نفسك من نعمة جزيلة وبركة عميقة بعد أن كنت محاطًا ومغمورًا فيها.

لعلك تبدي أسبابًا تبرر موقفك في ترك الخدمة، وألمس من خلال هذه الأسباب نبلًا وسموًا في أصل الفكرة، ولكنني لست أوافقك على السبيل الذي سلكته بعد ذلك.

ألعلك تركت الخدمة لأنك تشعر أنك غير مستحق أن تخدم الله – فأنا أعرف قديسًا عظيمًا هو معلمنا بولس الرسول كان يدعو نفسه "غير مستحق" "وأول الخطاة" ومع صدق شعوره وعمقه في كل ما قال إلا أنه لم ينقطع قط عن جهاد شديد في سبيل خدمة الله – وكان يسمع التشجيع المتواصل: "تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لأَنَّ قُوَّتِي فِي الضَّعْفِ تُكْمَلُ" (٢كو١٢: ٩). فحقًا أننا جميعًا – نحن الذين دعينا خدامًا – لا نستحق الخدمة، بل لكل واحد منا أسبابه الكثيرة الخفية والظاهرة – التي تزيده إيمانًا يومًا بعد يوم بعدم استحقاقه للخدمة، ولكن الذي يدعي أنه يخدم باستحقاق هو أول من لا يستحق الخدمة – لأن فضل القوة لله لا منا، وكما قال القديس يوحنا ذهبي الفم: "إن مهارة الطبيب لا تبدو في مداوته للأصحاء أو للذين يشكون علة بسيطة بل في المريض الذي يبدو شفاؤه مستعصيًا"، فنعمة الله تعمل فيك وفيَّ وفي جميع الشاعرين بعدم استحقاقهم، وما دامت مؤمنًا أنك تخدم إلهًا محبًا حنونًا فسوف يأتي الوقت الذي فيه تزول العقبات من أمامك وتمتلئ من اختبارات محبة الله.

ولعلك قائل أنك لم تستفد روحيًا من الخدمة، أو لم يستفد منك تلاميذك، وربما تستنتج من ذلك أنك قد تنجح في خدمة أخرى ويكون احتجاجك أنك لن تترك خدمة الله بل ستخدمه في محيط جديد أو خدمة جديدة، غير أنك بذلك تحوي أصل فكرة نبيلة ولكنك لست تعالج الأمر علاجًا صحيحًا، وإلا فحدثني عن مثل واحد لإنسان قال هذا.. واستمر في خدمة الله أو على الأقل بقى في نفس مستواه الروحي؟! بينما تحضرني أسئلة كثيرة على عكس ذلك من إخوة وقفوا مني يومًا موقف المعلمين أو الزملاء في الخدمة ولكن هذه الفكرة حين جاءتهم عصفت شيئًا فشيئًا بميولهم الروحية.

---

[1] نظير جيد "ارجعوا إلى الخدمة أيها الأحباء"، مجلة مدارس الأحد، السنة الخامسة، العدد الثاني، فبراير ١٩٥١م.

فرجائي يا أخي أن تستبقى نبل الفكرة وسمو القصد دون اندفاع إلى إجراء غير سليم، فإن الخطية دخلت إلى العالم في شكل ثمرة شهية للنظر وبهجة للعيون.. فأقول لك: إن شيئًا ما لديك هو الذي أنشأ فيك أولًا مللاً من الخدمة وأتتك بعد ذلك أفكار ترك الخدمة تتزين في ثياب خلابة وتخفي شرًا ومرارة، ولكنك بصلاة حارة وتفكير مُخلص وتوجه صادق إلى الله ستزيل هذا الشيء وتذهب ذاك الملل، وستزهر تبعًا لذلك تلك الروح الخادمة وتلك الأرواح المخدومة.. وستجد أن الوضع الذي وضعك الله فيه هو خير موضع لك لتخدمه وتحبه فيه. أما الخدمة فهي خدمة الله، وأما أنت فحبيب الله، والله ينظر إليك في محبتك وحدها ولا يحاسبك عن نجاح خدمتك – أما قال النبي: الرب إلهنا.. "يُعْطِينَا النَّجَاحَ، وَنَحْنُ عَبِيدُهُ نَقُومُ وَنَبْنِي" (نح٢: ٢٠).

أما إذا حدثتني عن ترك الخدمة؛ ربما لعدم انسجامك مع الوسط الذي تخدم فيه أو لتعرضك لضيق قليل أو كثير من أصدقائك أو عائلتك – أو لأي سبب آخر – فإذا نسيت أن لإلهنا حكمة عميقة في كل أموره معنا، فلعل قصده السامي يتجه إلى تعليمك تعليمًا أفضل، أو لعل خدمتك تنمو وسط الشوك أكثر وأحلى من نموها بين الأزهار وزنابق الحقل، وتذكر أنه بضيقات كثيرة وصبر كثير يمكننا أن نخدم وسط جيل معوج وملتو – وإنك حين ابتدأت خدمتك كانت لك الثقة الشديدة بمعونة الله، و"هُوَ هُوَ أَمْسًا وَالْيَوْمَ وَإِلَى الأَبَدِ" (عب١٣: ٨).

وإذا كانت شكواك من حالتك الروحية أنها ضعيفة فإن الذي له وحده أن يشير عليك بالوقت الذي فيه تترك الخدمة والوقت الذي فيه تعود إليها هو الأب الفاضل – الحكيم المختبر، القديس أب اعترافك وهو حين يستمع إلى ما ترويه له ضعف حياتك الروحية ليس يعني حين يمنعك عن الخدمة، أن تستمر هكذا على الدوام بل هو يعطيك فرصة استجمام روحي ليوصيك بعد ذلك بالعودة إلى الخدمة في أوفر نشاط.. فتخطئ إذا لم تستشره استشارة صادقة مخلصة في أمر تركك الخدمة، كما تخطئ أيضًا إن كانت هذه فكرتك ومع ذلك لا تبذل أي جهد في تحسين حالك وتقوية حياتك لأن هذا لا يتفق ورغبتك في خدمة الله وعدم نسيان كثرة أفضاله عليك بل ولا يتفق مع وجودك كمسيحي حقيقي في الحياة.

إنك مهما تحدثت عن أسباب تركك الخدمة فإنني أتمنى لك سريعًا أن ترجع عن تلك الأسباب لأن كل الذين تركوا خدمة الله لم يتمكنوا من الثبات في طريق الحق وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة – أما أنت يا رجل الله فاثبت على ما تعلمت، وعُد أنت وخدمتك إلى الله.

غير أن لي أيضًا كلمة عتاب – وعتاب شديد، أوجهها إليك، لأنك فيما أنت عالم أن الطبيب الأمين مهما كان ضعيفًا لا يمتنع عن علاج مرضاه الذين يموتون حوله كل يوم حين يتركهم، وفيما أنت عالم أن خدمة الله تفتقر جدًا إلى خدام كثيرين وإنه مهما بدا لك عدد الخدام في مكان ما كثيرًا فالحاجة في هذا المكان للخدام أكثر جدًا،

وهو يحتاج إلى تعاون وتكاتف وتشـجيع الإخوة بعضـهم لبعض – فيما أنت عالم بكل هذا أتتركنا ونحن أحوج ما نكون إلى كلماتك الطيبة وصـداقتك الحلوة ومحبتك الأمينة واختباراتك المفيدة، بينما يسـعدنا جدًا أن تكون دوامًا معنا، وكيف تترك من خدمتهم أو يحتاجون إلى خدمتك وإرشادك لهم بنعمة الله.

بينما لم تهتم؛ فيما نرى بنظرات آسفة حزينة تنظر إليك في سؤال ورجاء بل وفي ضراعة متلهفة إلى رجوعك بين صـفوف إخوتك لكي تكثر لهم حلاوة الجهاد وتزداد لهم لذة الخدمة. إنني أعتب عليك وفي خلال معرفتي بمحبتك الأمينة لله ولخدمته أزيد عليك العتاب، وأسلط عليك دموعنا جميعًا، وسنوصي بعضنا بعضًا أن نزيد من أجلك الصلاة لكي لا يذهب إكليلك، ولكي نفرح مرة أخرى إذ ترجع وتخدم معنا ونحن معك – أم تظن أننا بسهولة يمكننا أن ننسى خدمتك الأمينة وعشرتك الطيبة؟!

ألعله يسرنا؛ يا حبيب الله، أن نراك تسلك طريقًا شوكه كثير وأخطاره متلاصقة والنجاة منه صعبة عسيرة؟ – وإن كان هذا لا يسر البشر أفلعله يسر ملائكة الله الساهرين على خدمة أبنائه وخيرهم؟ أو ترى ذلك حسنًا أمام قديسي المسيح الذين يشهدون جهادنا ويجاهدون بالصلاة عنا أمام الله؟! **وفوق الكل..**

ألعل إلهنا الحبيب يرضيه أن يترك ابن خدمته ويخسر جهاده ويفقد إكليله؟!

نعم إن كانت خدمة الله ستستمر بنا أو بغيرنا، ولكنك أنت بالذات موضع اهتمامه وإليك اشتياقه، في ضيقتك يتضايق وفي خدمتك يفرح ويبارك بغزارة، فماذا تقول؟ مَن فرح بتركك الخدمة غير العدو الشرير وجنوده لأنك أعطيتهم شيئًا من الراحة، أما الله الفائق الجود عليك، أما قديسوه وملائكته، أما إخوانك وأحباؤك فهم قلوب آسفة وعيون دامعة راجية أن يرجع الحبيب مرة أخرى...

تعال معنا يا أخي – ضع يدك مع أيدينا في يد الله ولنتكل عليه في خدمتنا، لأن هذا هو الوقت الذي نعمل فيه للرب – ولتردد في كل حين: حين تثور عليك عواصف التجارب وتقلقك تيارات الأفكار المضطربة وتتلاعب أمامك مغريات العالم الكاذبة وأباطيله الخادعة – قل في قوة الخادم وإيمانه: "أَنَا لِحَبِيبِي وَحَبِيبِي لِي. الرَّاعِي بَيْنَ السَّوْسَنِ" (نش٦: ٣).